الرحـلة الرابعة

الرِّحْلَةُ الرَّابِعَةُ: فِي سَفِينَتِنَا الْمَاخِرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَبَعْدُ :أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ. كَمَا أَسْأَلُهُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى أَنْ يُحْيِيَنَا عَلَى نَهْجِ دِينِنَا، وَتَطْبِيقِ مَا فَهِمْنَا، وَالْإِخْلَاصِ فِي أَعْمَالِنَا.

مَعْشَرَ الْأَبْنَاءِ الْأَوفِيَاءِ، الْإِخْوَةَ الْأَفَاضِلَ، هَذِهِ هِيَ الرِّحْلَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ رِحْلَاتِنَا الْإِيمَانِيَّةِ عَبْرَ سَفِينَتِنَا الْمَاخِرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ. نَرْتَحِلُ فِيهَا لِنَتَخَفَّفَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ عَنَاءِ الدُّنْيَا، وَشِدَّةِ زِحَامِهَا، وَتَنَازُعِ أَهْلِهَا عَلَيْهَا؛ لِتَنْطَلِقَ أَرْوَاحُنَا بَعِيدًا عَنْ مَادِّيَّتِهَا وَشَهَوَاتِهَا وَمَلَذَّاتِهَا، وَانْكِبَابِ أَكْثَرِ مُحِبِّيهَا عَلَيْهَا، لِنُخَلِّصَ أَنْفُسَنَا -وَلَوْ قَلِيلًا- مِنْ آثَارِ مَا عَلِقَ بِهَا مِنْ زِينَتِهَا وَفِتْنَتِهَا وَإِغْرَاءَاتِهَا.

مَعْشَرَ الرُّكَّابِ الْكِرَامِ، الْآنَ تَأْتِينَا إِشَارَةُ انْطِلَاقِ الرِّحْلَةِ الْجَدِيدَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ غُرْفَةِ الْمُرَاقَبَةِ، فَأَبْوَابُ السَّفِينَةِ تُشَرَّعُ، فَارْكَبُوا فِيهَا قَائِلِينَ :﴿**بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (سورة هود: 41). خُذُوا أَمَاكِنَكُمْ، وَشُدُّوا عَلَيْكُمُ الْأَحْزِمَةَ، تَأَهَّبُوا بِالْجِدِّ وَالْحَزْمِ، وَاسْتَحْضِرُوا نِيَّةَ التَّعَبُّدِ لِرَبِّكُمْ بِاخْتِيَارِكُمْ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ الْمَيْمُونَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. تَفَقَّدُوا أَمْتِعَتَكُمْ وَزَادَكُمْ، وَلْيَكُنْ هُوَ **زَادَ التَّقْوَى**؛ فَإِنَّهُ خَيْرُ الزَّادِ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَقَدْ صَدَقَ ذَاكَ الْقَائِلُ:

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

نَسِيرُ إِلَى الْآجَالِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ * وَأَيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ**

وَلَمْ نَرَ مِثْلَ الْمَوْتِ حَقًّا كَأَنَّهُ ** إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ الْأَمَانِيُّ بَاطِلُ

وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطَ فِي زَمَنِ الصِّبَا * فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ لِلرَّأْسِ شَامِلُ**

تَرَحَّلْ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى * فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ تُعَدُّ قَلَائِلُ**

سَلُوا اللهَ رَبَّكُمُ الْإِعَانَةَ عَلَى فِقْهِ مَا سَيُلْقَى عَلَيْكُمْ خِلَالَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ، وَأَنْ يُخْلِصَ أَعْمَالَكُمْ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ؛ فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ يُنْجِي صَاحِبَهُ وَلَوْ كَانَ الْعَمَلُ قَلِيلًا.

مَعْشَرَ الْمُسَافِرِينَ، احْذَرُوا أَعْدَاءَكُمُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ تَعْطِيلَ رِحْلَتِكُمْ وَقَطْعَ الطَّرِيقِ عَلَيْكُمْ، فَيَسْرِقُونَ مِنْكُمْ أَوْقَاتَكُمْ، وَيَشْغَلُونَكُمْ عَنْ سَفَرِكُمْ إِلَى اللهِ. وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ. اعْقِدُوا الْعَزْمَ، وَأَكْمِلُوا سَبِيلَكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَاسْتَمْتِعُوا بِرِحْلَتِكُمْ فِي رِحَابِ طَاعَةِ رَبِّكُمْ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمُرَافَقَةِ سَلَفِكُمُ الصَّالِحِينَ مِنْ صَحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَتَابِعِينَ رَحِمَهُمُ اللهُ جَمِيعًا.

فَإِنَّ مُرَافَقَةَ الْمَوْتَى مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ أَفْضَلُ وَأَوْلَى مِنْ مُصَاحَبَةِ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَةُ، وَلَا يُضْمَنُ ثَبَاتُهُمْ عَلَى دَرْبِ الِاسْتِقَامَةِ. فَكَمْ مِنْ أُنَاسٍ مَاتُوا عَلَى صَلَاحٍ، فَخُتِمَ لَهُمْ بِخَيْرٍ، وَهُمْ فِينَا أَحْيَاءٌ يُقْتَدَى بِهِمْ. وَكَمْ مِنْ أُنَاسٍ يَعِيشُونَ بَيْنَنَا بِأَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ، يَمْلَؤُونَ الْمُجْتَمَعَ بِصَخَبِهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ فِي عِدَادِ الْأَمْوَاتِ؛ لَا نَفْعَ فِيهِمْ، وَلَا مَصْلَحَةَ تُرْجَى مِنْهُمْ، وَخَيْرٌ مِنْ مُخَالَطَتِهِمُ الْبُعْدُ عَنْهُمْ.

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

وَاعْلَمُوا –أَرْشَدَنِي اللهُ وَإِيَّاكُمْ إِلَى طَاعَتِهِ– أَنَّ هَذِهِ الرِّحْلَةَ سَتَكُونُ شَاقَّةً مُضْنِيَةً مُتْعِبَةً، تَتَطَلَّبُ مِنَّا جَمِيعًا كَثِيرًا مِنَ الصَّبْرِ وَالْجَلَدِ وَالثَّبَاتِ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ مَا سَيُطْرَحُ فِيهَا مِنْ مَوْضُوعٍ. إِنَّهُ مَوْضُوعٌ عَظِيمٌ وَخَطِيرٌ وَجَلِيلٌ، وَقَدْ يَكُونُ شَدِيدًا وَعَسِيرًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النُّفُوسِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

لَقَدْ تَحَدَّثْنَا فِي الرِّحْلَةِ السَّابِقَةِ عَنْ قِصَرِ الْأَمَلِ وَطُولِهِ، وَأَثَرِ ذَلِكَ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ إِيجَابًا وَسَلْبًا، وَخَلَصْنَا مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْقَدْرِ الْمُتَعَيَّنِ لِهَذَا الْأَمْرِ، وَهُوَ أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ الْمُوَحِّدِ، الرَّاغِبِ فِي تَحْقِيقِ مَرْضَاةِ رَبِّهِ، الطَّامِعِ فِي عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ وَدُخُولِ جَنَّتِهِ وَالنَّجَاةِ مِنْ عِقَابِهِ وَعَذَابِهِ، أَنْ يُقَصِّرَ أَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يَعْمَلَ لِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ صَائِرٌ إِلَيْهِ وَيُقَدِّرُ مَقَامَهُ فِيهَا، وَأَنْ يَتَّخِذَهَا مَطِيَّةً إِلَى الْآخِرَةِ، وَ لَا يَرْكَنُ إِلَيْهَا الْبَتَّةَ، وَلَا يُسْكِنُهَا قَلْبَهُ، وَلَا تَتَعَلَّقُ بِهَا نَفْسُهُ فَيَنْسَى آخِرَتَهُ.

إِنَّنَا سَنُبْحِرُ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ مِنْ مِينَاءٍ رُفِعَتْ عَلَى وَاجِهَتِهِ لَوْحَةٌ كَبِيرَةٌ كُتِبَ عَلَيْهَا :

مِينَاءُ هَادِمِ اللَّذَّاتِ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ رِحْلَتَنَا هَذِهِ طَيِّبَةً مُبَارَكَةً مَأْمُونَةً نَافِعَةً، وَأَنْ يَرْزُقَنَا خِلَالَهَا الْأَمْنَ وَالْأَمَانَ، وَالسَّكِينَةَ وَالِاطْمِئْنَانَ، وَأَنْ يُمَتِّعَنَا فِيهَا بِمَا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُنَا.

وَإِنَّهُ عِنْدَ الْكَشْفِ عَنِ اسْمِ الْمِينَاءِ الَّذِي سَتَنْطَلِقُ مِنْهُ رِحْلَتُنَا الْبَحْرِيَّةُ، قَدْ يَشْعُرُ الْقَلْبُ بِالْخَوْفِ وَالْوَجَلِ، وَتَسْرِي فِي النَّفْسِ الرَّهْبَةُ وَالْخَشْيَةُ؛ فَتُرْسِلُ إِشَارَاتٍ مُتَتَابِعَةً تَحْذِيرًا لِكُلِّ مَنْ يَرْسُو فِي هَذَا الْمِينَاءِ أَوْ يَنْوِي شَدَّ الرِّحَالِ وَإِطْلَاقَ الشِّرَاعِ.

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ المُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الآخِرَةِ

لَا شَكَّ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ إِخْوَانِنَا الرُّكَّابِ الَّذِينَ اسْتَقَلُّوا سَفِينَتَنَا المُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الآخِرَةِ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ، عِنْدَ سَمَاعِهِمُ اسْمَ المِيناءِ المَذْكُورِ، أَدْرَكُوا المَقْصُودَ وَفَهِمُوا المَغْزَى وَالمُحْتَوَى. وَلَو أَنِّي سَأَلْتُ أَحَدَ الرُّكَّابِ عَنْ مَعْنَى اسْمِ هَذَا المِيناءِ، أَجَابَ: إِنَّهُ **مِيناءُ المَوْتِ**. وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ سَبَبَ التَّوَجُّسِ وَالخَوْفِ وَالانْزِعَاجِ عِنْدَ سَمَاعِ اسْمِ المِيناءِ. لَكِنَّ المُؤْمِنَ المُوَحِّدَ، المُتَرَسِّمَ لِخُطَى سَلَفِهِ الصَّالِحِينَ، حِينَ يَطْرُقُ سَمْعَهُ كَلِمَةُ "**المَوْتِ**"، يَرْجِعُ إِلَى مُعْتَقَدِهِ وَإِيمَانِهِ وَعَلَاقَتِهِ بِرَبِّهِ، فَيَطْمَئِنُّ وَيَسْكُنُ وَيَهْدَأُ.

تَنْقَدِحُ مِنَّا أَسْئِلَةٌ مُتَتَابِعَةٌ مُتَسَارِعَةٌ: مَا المَوْتُ لُغَةً وَشَرْعًا؟ وَمَا أَثَرُهُ فِي النَّاسِ؟ وَمَاذَا يُمَثِّلُ عِنْدَ أَهْلِ الإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ وَمُدَّعِيهِ؟ وَهَلْ هُوَ وَاقِعٌ مَحْتُومٌ؟ وَمَتَى يَقَعُ؟ وَكَيْفَ يَقَعُ؟ وَهَلْ نَسْتَعِدُّ لَهُ؟ وَهَلْ يُمْكِنُ تَقْرِيبُهُ؟ مَاذَا يَحْدُثُ بَعْدَهُ؟ هَلْ هُوَ فَنَاءٌ وَانْقِضَاءٌ أَمْ مُتْعَةٌ وَرَخَاءٌ؟ هَلْ هُوَ نِهَايَةٌ حَتْمِيَّةٌ لِكُلِّ سَائِرٍ، أَمْ مَرْحَلَةٌ مِنْ مَرَاحِلِ حَيَاةِ الإِنْسَانِ يَعِيشُهَا ثُمَّ تَتْلُوهَا أُخْرَى؟ وَأَسْئِلَةٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ ...نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنَا عَلَى الإِجَابَةِ عَلَيْهَا.

الموت والموتان: لغة هُوَ ضِدُّ الحَيَاةِ. وَالعَرَبُ تَعْرِفُ المَوْتَ بِنَقِيضِهِ، وَكَذَا الحَيَاةَ بِنَقِيضِهَا؛ فَالمَوْتُ وَالحَيَاةُ نَقِيضَانِ مُتَقَابِلَانِ مُتَضَادَّانِ، كَالنُّورِ وَالظَّلَامِ، وَالحَرِّ وَالبَرْدِ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. وَأَصْلُ المَوْتِ لُغَةً مِنَ السُّكُونِ؛ فَكُلُّ مَا سَكَنَ فَقَدْ مَاتَ. يُقَالُ: مَاتَتِ النَّارُ، إِذَا بَرَدَ رَمَادُهَا فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الجَمْرِ شَيْءٌ. وَيُقَالُ: مَاتَتِ الرِّيحُ، أَيْ: سَكَنَتْ. فَالمَوْتُ سُكُونٌ، فِي حِينِ أَنَّ الحَرَكَةَ فِي أَصْلِ الحَيَاةِ.

أَمَّا المَوْتُ شَرْعًا: فَهُوَ انْقِطَاعُ تَعَلُّقِ الرُّوحِ بِالْبَدَنِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَمُفَارَقَتُهَا لَهُ، وَتَبَدُّلُ حَالٍ، وَانْتِقَالٌ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ.

وَقَدْ يَكُونُ النَّوْمُ شَبِيهًا بِالْمَوْتِ، بَلْ هُوَ أَخُو الْمَوْتِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: **(النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَنَامُونَ)** حسّنه الألباني في "السلسلة الصحيحة".

وَقَدْ يُسَمِّي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ النَّوْمَ بِـ "الْوَفَاةِ الصُّغْرَى"، وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ "الْقِيَامَةَ الصُّغْرَى". إِذَنْ فَالنَّوْمُ وَفَاةٌ، وَالْقِيَامُ مِنَ النَّوْمِ بَعْثٌ وَنُشُورٌ. لِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ يَقُولُ: **(الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)**"رَوَاهُ الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ."

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ قَالَ» :**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا** .«(رواه البخاري ومسلم). وَجَاءَ عِنْدَ مُسْلِمٍ قَوْلُهُ ﷺ عِنْدَ نَوْمِهِ» :**اللَّهُمَّ خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا، إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ.**«

وَقَدْ ضُرِبَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَثَلٌ لِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، فَأَشَارَ إِلَى مُشَابَهَةِ النَّوْمِ لِلْمَوْتِ وَالِاسْتِيقَاظِ مِنْهُ لِقَضِيَّةِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى ثُبُوتِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

قَالَ تَعَالَى :﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأنعام: 60). فَالْآيَةُ تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ الْمَوْتِ خِلَالَ النَّوْمِ (الْوَفَاةِ الصُّغْرَى)، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الِاسْتِيقَاظِ مِنْهُ.

فَاعْلَمْ يَا عَبْدَ الله –عَلَّمَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ– أَنَّ نَوْمَكَ مَوْتٌ، لَكِنَّهَا مَوْتَةٌ صُغْرَى مُؤَقَّتَةٌ، وَإِنَّ اسْتِيقَاظَكَ مِنْ نَوْمِكَ بَعْثٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، لَكِنَّهُ بَعْثٌ أَوَّلُ لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدُّنْيَا. فَفِي النَّوْمِ يَقْبِضُ اللهُ أَرْوَاحَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ سَبَقَ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ أَثْنَاءَ نَوْمِهِمْ، وَيُرْسِلُ أَرْوَاحَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ بَقِيَتْ آجَالُهُمْ إِلَى وَقْتِ مَوْتِهِمُ الْمَعْلُومِ، فَإِذَا اسْتَوْفَتْ آجَالَهَا قَبَضَهَا.

قَالَ تَعَالَى :﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الزمر: 42). أَخْبَرَ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كِلَا النَّفْسَيْنِ –الْمُمْسَكَةِ وَالْمُرْسَلَةِ– قَدْ تُوُفِّيَتَا: وَفَاةَ النَّوْمِ وَوَفَاةَ الْمَوْتِ. فَأَمَّا وَفَاةُ النَّوْمِ فَإِنَّهَا عَلَى قِسْمَيْنِ: إِمْسَاكٌ وَإِرْسَالٌ، وَأَمَّا وَفَاةُ الْمَوْتِ فَقَبْضٌ بِلَا إِرْسَالٍ.

اعْلَمْ يَا عَبْدَ الله، وَيَا أَمَةَ الله، أَنَّ الْمَوْتَ حَتْمٌ لَازِمٌ، وَوَاقِعٌ مُؤَكَّدٌ، لَا بُدَّ مِنْهُ يَنْزِلُ بِكُلِّ حَيٍّ، وَلَا مَفَرَّ وَلَا مَنَاصَ مِنْهُ .قَالَ تَعَالَى :﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ (سورة الجمعة: 8). وَقَالَ تَعَالَى :﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ سورة النساء: 78.

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمَاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

إِذَنِ الْمَوْتُ لَا يُمْنَعُ، وَلَا يُرَدُّ، وَلَا يُدْفَعُ، وَلَا يَتَوَسَّطُ فِيهِ أَحَدٌ. لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، وَلَا غَنِيٍّ وَفَقِيرٍ. هُوَ قَدَرٌ نَافِذٌ، وَقَضَاءٌ مُبْرَمٌ، وَحُكْمٌ مَاضٍ، جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ عِنْدَ كِتَابَةِ مَقَادِيرِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَذَلِكَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ. وَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ (أبو العتاهية) فِي تَقْرِيرِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْخَلْقِ فَكَمْ * فَلَّ مِنْ جَيْشٍ وَأَفْنَى مِنْ دُوَلْ**

أَيْنَ نُمْرُودٌ وَكَنْعَانُ وَمَنْ * مَلَكَ الْأَرْضَ وَوَلَّى وَعَزَلْ؟**

أَيْنَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَنَوْا * هَلَكَ الْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقُلَلْ؟**

أَيْنَ أَرْبَابُ الْحِجَى أَهْلُ النُّهَى * أَيْنَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأُوَلْ؟**

سَيُعِيدُ اللهُ كُلًّا مِنْهُمُ ***وَسَيَجْزِي فَاعِلًا مَا قَدْ فَعَلْ.

وَيَقُولُ غَيْرُهُ مِنَ الْفُضَلَاءِ مُذَكِّرًا النَّاسَ بِأَمْرِ الْمَوْتِ الْحَقِّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، وَالْكَأْسِ الَّتِي لَا بُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ شَاءَ أَمْ أَبَى أَنْ يَذُوقَهَا:

الْمَوْتُ بَابٌ وَكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ * يَا لَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ الْبَابِ مَا الدَّارُ؟**

الدَّارُ جَنَّةُ عَدْنٍ إِنْ عَمِلْتَ بِمَا * يُرْضِي الْإِلَهَ وَإِنْ فَرَّطْتَ فَالنَّارُ.**

تَذَكَّرِ الْمَمَاتَ وَأَنْتَ غَافِلٌ* فَإِنَّ مَصِيرَكَ إِلَى الْمَمَاتِ قَرِيبٌ.**

وَقَدْ يَنْسَى أَهْلُ الدُّنْيَا، أَوْ يَتَنَاسَوْنَ، أَوْ يَتَجَاهَلُونَ عَمْدًا حَقِيقَةَ الْمَوْتِ، لِكَوْنِهِ أَمْرًا حَتْمًا نَازِلًا بِكُلِّ حَيٍّ سِوَى اللهِ تَعَالَى. فَتَنْبِيهًا لِكُلِّ غَافِلٍ، وَتَيْقِينًا لِكُلِّ شَاكٍّ

مُرْتَابٍ، وَتَذْكِيرًا لِكُلِّ تَائِبٍ أَوَّابٍ، وَتَقْرِيرًا وَتَأْكِيدًا لِكُلِّ مُوقِنٍ، نَسُوقُ إِلَى رُكَّابِ سَفِينَتِنَا الْمَاخِرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ بَعْضَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالنَّبَوِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى ذِكْرِ الْمَوْتِ؛ هَذَا الْأَمْرِ الْمَحْتُومِ الَّذِي قَضَاهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ نَفْسٍ، لَيْسَ دُونَهُ حَائِلٌ.

جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ، فِي مَوَاطِنَ مُتَعَدِّدَةٍ، تُقَرِّرُ حَقِيقَةَ الْمَوْتِ، وَخُرُوجَ الرُّوحِ مِنَ الْبَدَنِ، وَانْتِقَالَ الْإِنْسَانِ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ الْعَاجِلَةِ الزَّائِلَةِ الْمُؤَقَّتَةِ، إِلَى دَارٍ أُخْرَى اسْمُهَا "دَارُ الْبَرْزَخِ"، يَأْتِيكَ الْكَلَامُ عَنْهَا فِي قَابِلِ الرِّحْلَاتِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. فَنَقُولُ مُسْتَعِينِينَ بِاللهِ، وَمُذَكِّرِينَ أَنْفُسَنَا وَإِيَّاكُمْ بِبَعْضِ هَذِهِ النُّصُوصِ الْقَاطِعَةِ:

مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ سورة الأنبياء: 35. فَهَذِهِ الْآيَةُ تُقَرِّرُ حَقِيقَةً كُلِّيَّةً شَامِلَةً، لَا تَسْتَثْنِي أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ، بَشَرًا كَانَ أَوْ جِنًّا، غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا، عَظِيمًا أَوْ حَقِيرًا. فَالْكُلُّ سَيَذُوقُ هَذِهِ الْكَأْسَ، وَالْكُلُّ سَيَرْجِعُ إِلَى اللهِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ.

وَقَالَ مُخَاطِبًا أَكْرَمَ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ سورة الأنبياء: 34. فَإِذَا كَانَ هَذَا الْخِطَابُ لِسَيِّدِ الْخَلْقِ وَحَبِيبِ الْحَقِّ ﷺ، فَمَاذَا يُقَالُ فِيمَنْ هُوَ دُونَهُ؟ إِنَّهَا رِسَالَةٌ وَاضِحَةٌ بِأَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِدَارِ خُلُودٍ وَلَا بَقَاءٍ، وَإِنَّمَا هِيَ قَنْطَرَةٌ يُعْبَرُ مِنْهَا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَمِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَصِفُ هَذِهِ اللَّحَظَاتِ الْعَصِيبَةَ، لَحَظَاتِ النَّزْعِ الْأَخِيرِ وَبُلُوغِ الرُّوحِ الْحُلْقُومَ، قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ:

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ سورة القيامة: 26-30.

تَصِفُ هَذِهِ الْآيَاتُ المُؤَثِّرَةُ حَالَ الْإِنْسَانِ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ، حِينَ تَصِلُ رُوحُهُ إِلَى أَعْلَى صَدْرِهِ، وَيَبْحَثُ أَهْلُهُ يَائِسِينَ عَنْ أَيِّ طَبِيبٍ أَوْ دَوَاءٍ يَرُدُّ قَضَاءَ اللهِ، وَيُوقِنُ المُحْتَضَرُ أَنَّهَا لَحْظَةُ الْفِرَاقِ لِلدُّنْيَا وَالْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ، وَتَلْتَفُّ شِدَّةُ آخِرِ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ أَوَّلِ الْآخِرَةِ، ثُمَّ يُسَاقُ الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ وَخَالِقِهِ لِيَلْقَى حِسَابَهُ وَجَزَاءَهُ.

وَفِي مَوْطِنٍ آخَرَ يُصَوِّرُ الْقُرْآنُ هَذَا الْمَشْهَدَ مُبَيِّنًا عَجْزَ الْبَشَرِ وَقُرْبَ اللهِ الْمُطْلَقَ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ سورة الواقعة: 83-85.

فَيَا لَهَا مِنْ لَحَظَاتٍ حَاسِمَةٍ وَسَكَرَاتٍ مُؤْلِمَةٍ، لَا يُثَبِّتُ اللهُ فِيهَا إِلَّا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ. فَاللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَهَوِّنْ عَلَيْنَا سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وَمِنْ هَدْيِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ:

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

لَمْ يَكُنْ ذِكْرُ الْمَوْتِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ أَقَلَّ تَأْكِيدًا، بَلْ كَانَ الْهَدْيُ النَّبَوِيُّ يَحُثُّ دَائِمًا عَلَى اسْتِحْضَارِهِ وَعَدَمِ الْغَفْلَةِ عَنْهُ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ**» يَعْنِي: الْمَوْتَ. (رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وصححه الألباني). فَهَذَا أَمْرٌ نَبَوِيٌّ صَرِيحٌ بِالْإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِ مَا يَقْطَعُ اللَّذَّاتِ الدُّنْيَوِيَّةَ وَيُكَدِّرُ صَفْوَهَا، لِكَيْ لَا تَرْكَنَ النُّفُوسُ إِلَيْهَا وَتَنْسَى غَايَتَهَا الْأُخْرَوِيَّةَ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: «**إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ**». (رواه البخاري). وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي قِصَرِ الْأَمَلِ فِي الدُّنْيَا، وَفِي اسْتِغْلَالِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَحْوَالِ قَبْلَ فَوَاتِهَا وَانْقِضَائِهَا.

فَهَذِهِ النُّصُوصُ -يَا رُكَّابَ السَّفِينَةِ- لَيْسَتْ لِبَثِّ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ، بَلْ هِيَ سَوْطٌ يُلْهِبُ ظُهُورَ الْغَافِلِينَ، وَنِدَاءٌ يُوقِظُ قُلُوبَ النَّائِمِينَ. إِنَّ تَذَكُّرَ الْمَوْتِ هُوَ خَيْرُ دَافِعٍ لِلتَّزَوُّدِ مِنَ الصَّالِحَاتِ، وَأَعْظَمُ زَاجِرٍ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ وَالْمُوبِقَاتِ. فَلْنُحَاسِبْ أَنْفُسَنَا قَبْلَ أَنْ نُحَاسَبَ، وَلْنَتَأَهَّبْ لِلرَّحِيلِ بِخَيْرِ الزَّادِ، فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، قَبْلَ أَنْ يُنَادَى فِينَا: يَا عَبْدَ اللهِ، انْتَهَتِ الرِّحْلَةُ.